محمد الماغوط
لغة الحياة: نصوص حرَّة

رحل، منذ أيَّام (٣/ ٤/ ٢٠٠٦)، الأديب السُّوري محمد الماغوط إلى العالم الآخر. وكان قد نال مؤخَّراً «جائزة سلطان العويس» تقديراً لعطائه الشعري. كان الماغوط متعدِّد المواهب؛ فهو، في المقام الأوَّل، شاعر فريد أصدر المجموعات الشعريَّة الآتية: حزن في ضوء القمر، غرفة بملايين الجدران، الفرح ليس مهنتي، البدوي الأحمر؛ وكاتب مسرحي كبير ألَّف المسرحيات الآتية: العصفور الأحدب، المهرِّج، وضيعة تشرين، وغربة؛ وكاتب مقالة متميِّز؛ كما أنَّه كتب ما سمِّي «الأرجوحة»، وصنَّفه الناشر في نوع الرِّواية. وفي ما يتعلَّق بنوع الكتابة وتصنيفها، يقول الماغوط:

«أنا نفسي في الشِّعر والمسرح، وحتى في المقالة، ليس من اختلاف بين الشِّعر والمسرح ما دمتُ أعبِّر عن همومي وأفكاري ومشاعري. أنا أكتب، ولا همَّ ما يكون ما أكتبه شعراً أو مسرحاً».

هذا يعني أنَّ التجربة الشخصيَّة هي التي تملي الكتابة، فهو، كما يقول، اختار قصيدته بالمصادفة، وأحبَّها «حبَّاً من أوَّل نظرة وأوَّل كرباج»، في إشارة إلى أنَّ أولى قصائده: «القتل» كتبت في السجن، بوصفها مذكِّرات شخصيَّة.

في السَّلميَّة، المدينة السُّوريَّة النَّائية، الحائرة بين الصَّحراء والمدينة، ولد محمَّد الماغوط عام ١٩٣٤، في بيت يعمل صاحبه حصَّاداً ـ أجيراً لدى كبار الفلَّاحين. يقول عن مدينته: «السلميَّة... علَّمتني الحزن والسوداوية»، ويضيف متحدِّثاً عن موقعها التاريخي وموقعه فيها: «هذه المدينة هُدمت مئة مرَّة، وهي معقل القرامطة والمتنبِّي، وعلى هذا الأساس يمكنك اعتباري فرويد الشيعة».

عاش الماغوط، في هذه المدينة، طفولة بائسة، ذاق فيها طعم الظُّلم الناتج عن الفوارق الاجتماعية، ما نمَّى لديه حسَّ الرفض والتمرُّد. يتذكَّر الشَّاعر من أيَّام ذلك الزَّمان يوماً أتى فيه إلى مدينته «أمير فارس» ليرمي، في أثناء دفن أحدهم حنطة للفقراء، فضربه الفتى المتمرِّد بحجر، فجلده الفارس بسوطه ضربات بقيت آثارها على الجلد الطري زمناً طويلاً، وفي النفس طوال الزَّمن.

وجد حسُّ التمرُّد، في الحسِّ السَّاخر المثير للمفارقات المفاجئة، قريناً له في ذات الشَّاعر «الصَّادقة السَّاذجة»، فمضى القرينان معاً يخطَّان دروب عيش وشعر جديدة.

مشى الفتى خطوات التمرُّد الأولى، وكان في الرَّابعة عشرة من عمره، فخرج/هرب من مدرسة خرابة الزراعيَّة المجانية في الغوطة إلى دمشق، فاجتاز خمسة عشر كيلومتراً مشياً على الأقدام، ليخرج من المؤسسة المحكومة بنظام داخلي قاسٍ إلى رحاب الحياة، ولم يعد بعد ذلك إلى المدرسة.

اقتيد إلى السِّجن بتهمة الانتماء إلى الحزب السوري القومي...، وهو، كما يقول، لم يكن حزبياً بالمعنى المعروف، فانتماؤه، هو الفوضوي، إلى حزب، كان عبارة عن سعي فتى يافع فقير إلى انتماء وحماية ودفء. يعبِّر بسخريته المعروفة عن موقفه بسؤالٍ يقيم ثنائيَّة تكشف ما ينبغي الاهتمام به: «فماذا يعنيني من السفن الفينيقية التي كانت تعبر المحيطات، وتشقُّ عباب الموج، وأنا لا أستطيع أن أعبر زقاقاً موحلاً طوله متران».

عاش في السجن تجربة فظيعة، من مكوِّناتها: التعذيب والرُّعب والذُّل. يقول في وصف هذه التجربة: «بدلاً من أن أرى السَّماء رأيت الحذاء...، رأيت مستقبلي على نعل الشرطي... وفيه تعلَّمت كيف أقول «آه»...، والمثير أنَّني الذي لم أكمل تعليمي قد تعلَّمت كثيراً من السِّجن والسَّوط العربي بيد السجَّان، السِّجن والسَّوط كانا معلمي الأولين في جامعة العذاب الأبدية التي تخرَّجت منها إنساناً معذَّباً خائفاً إلى الأبد... بعد تجربة السجن فقدت الإحساس بالبراءة بكل شيء... انطبعت روحي بوشم التوجُّس من العالم، وهرب مني الأمان،

وربَّما إلى الأبد، تحطَّمت في السجن أشياء في الأعماق، لا يمكن ترميمها على الإطلاق، ولو أنِّي استعملت عكَّازاً لكل عضو في أعماقي لاحتجت إلى منجرة قرب بيتي».

إن يكن السِّجن حطَّم أشياء في الأعماق، فإنَّه، من نحوٍ أوَّل لم يحطِّم في الذَّات رفضها وتمرُّدها وعنادها، ومن نحوٍ ثانٍ كشف عن موهبة شعريَّة فذَّة. كان الشَّاب السَّجين يسجِّل عذاباته ـ مذكِّراته على ورق سجائر «البافرا»، وعندما خرج هرَّبها... واكتشف في ما بعد أنَّ ما كتبه كان شعراً، ومن هذا الشِّعر قصيدة «القتل» المنشورة في مجموعة «حزن في ضوء القمر».

ثمَّ تمَّت النَّقلة/المنعطف في بيروت؛ حيث أتيح للشَّاعر المتمرِّد فيها فضاء التحقُّق: حريَّة العيش والكتابة. ففي هذه الأثناء، كان تجمُّع شعر (يوسف الخال، أدونيس، أنسي الحاج، شوقي أبي شقرا...) يصدر مجلَّة «شعر»، ويعقد خميسها النقدي... انضمَّ الماغوط للتجمُّع، وسرعان ما بدا أنَّه مختلف...، فهذا الآتي من الحياة بدأ يكتب ذاته، من دون التقيُّد بأي شرط خارجي، كتب لغة فريدة جعلته يمتلك الحيِّز الأبرز، ويحقِّق الإنجاز الأهم، المتمثِّل في شعر جديد، مختلف، سمَّاه بعضهم قصيدة نثر، وسمَّى صاحبه «معلِّم قصيدة النثر». والأمر، في الحقيقة، يحتاج إلى بحثٍ قد يطول، ونكتفي في هذا المقام بإشارات دالَّة. وفي تعبير دالٍّ على موقع بيروت ودورها قال الماغوط: «بيروت كانت لي بمثابة الأم... بيروت تعيش في قلبي».

قصيدة النَّثر، كما يُفهم من تنظيرات روَّادها المستقاة من كتاب الباحثة الفرنسيَّة، سوزان برنار: «قصيدة نثر...» هي بناء أدبي نثري، متحرِّر من القواعد الشِّعريَّة، يُقصد إلى أحكام بنائه وتجويده، لينطق برؤية كليَّة إلى العالم...

يختلف شعر الماغوط عن قصيدة النثر هذه، فهو شعر آتٍ من الحياة، ومن تجربة ـ خبرة الذَّات الفرديَّة، وليس من المفهوم/التنظير الذي أتى منه رائدا قصيدة النَّثر: أدونيس وأنسي الحاج، كما أنَّه تلقائي، عفوي فطري، لم يقصد إلى إحكام بنائه وتجويده، أو هو الشِّعر يصدر من منابعه الأولى، يؤتاه ذو

الموهبة الفريدة، العارف، فيكون، كما قال الشاعر العربي عبد الله بن رواحة: «الشيء يختلج في صدورنا فتنطق به ألسنتنا». وبهذا تكون حداثة الماغوط الحداثة النابعة من تفاصيل الحياة اليوميَّة، ومن أبرز مزاياها: كشف المفارقات والثنائيَّات، في الحياة المعيشة، وتمثيلها صوراً مفاجئة، ساخرة متمرِّدة واضحة. يقول الماغوط: «أنا شخص فردي جدَّاً، أنا شاعر صورة، ولست شاعر فكر، وصوري الشعرية واضحة، يمكنك أن تراها».

وقد أدرك بعض شعراء قصيدة النثر ونقَّادها الرُّواد (ومنهم أدونيس وخالدة سعيد) تميُّز شعر الماغوط من قصائد نثر الرُّواد، فلم يعدُّوا نصوصه قصائد نثر، واحتاروا في تصنيفها. وتثار، هنا، مسألة تجنيس «النَّص الأدبي»، فالحقيقة أنَّ نصوص الماغوط هي نصوص حرَّة تحتاج إلى دراسات نصِّيَّة تتبيِّن خصائصها وتبلورها، وتجنِّسها...، وقد أدرك الماغوط هذه الحقيقة، فقال: «صحيح لا حدود بين النصوص التي أكتبها».

وكما تختلف نصوص شعر الماغوط عن قصائد نثر الرُّواد، فإنَّها تختلف عمَّا يُسمَّى اليوم «قصائد نثر»؛ إذ إنَّ هذا المصطلح شاع و«عُمِّم» كثيراً، وصار يطلق، بسبب غياب النَّقد وسهولة النشر وبؤس الواقع، على أي كتابة تتحرَّر من الوزن والقافية.

كان الماغوط، في المرحلة الأولى من مراحل تطوُّر مسار حركة «شعر»، أحد شعراء هذه الحركة الأساسيِّين، وكان شعره يعدُّ أهم إنجازاتها...، لكنَّه، وبعد مدَّة من العيش وسط هذه الحركة، خرج عليها...، واتَّهم شعراءها بـ «الحقد على كل ما يمت إلى هذه البلاد وتاريخها بصلة». ووصف يوسف الخال بـ «تشومبي الشعر الحديث (تشومبي انفصالي نيجيري كان مشهوراً بانفصاليته وتبعيَّته للمعسكر الغربي إبَّان إطلاق التشبيه)، وعبَّر عن رؤيته إليهم بقوله الساخر: «قل لأحدهم ثلاث مرَّات: المتنبي... يسقط مغميَّاً عليه، بينما قل له، وعلى مسافة كيلومتر:... جاك بريفير...، فينتصب، ويقفز عدَّة أمتار عن الأرض كأنَّه شرب حليب السِّباع، لأنَّ هذا غربي وذاك عربي».

وهكذا كان خروج الماغوط من «تجمع شعر» خروجاً من المؤسَّسة المحكومة بمشروع ثقافي غربي، من صفاته القطع مع التراث العربي، ومع الواقع، والاتصال بالغرب... كان خروجه خروجاً إلى الحياة، إلى فضاء الحريَّة...، مواصلاً مسار الصدق الذي عُرف به. خاطبه نزار قباني مرَّة: «أنت أصدقنا، أصدق شعراء جيلنا».

في تلك المرحلة، شبِّه بالشاعر الفرنسي «رامبو»، وأمثاله من الشُّعراء الغربيين، والحق أنَّ هذا الشَّبه لم يكن وليد تقليد، لأنَّ الماغوط آنذاك لم يكن قد عرف «رامبو»، ولم يكن قد قرأ له. وإن كان من شبه بين الشاعرين: العربي والغربي فهو وليد إصغاء كل منهما لصوت الحياة ـ التجربة الشخصيَّة الفريدة، ولعلَّ هذا الشبه يرشدنا إلى منابع الشِّعر الإنساني الحقيقيَّة، فالتفرُّد في الخصوصيَّة هو الأساس في «العالميَّة».

مثَّل شعر الماغوط ظاهرةً تتميَّز من ظواهر أخرى عرفها مسار الحداثة الشعريَّة العربيَّة، بأنَّها لم تكن ترجمة أو ما يشبه الترجمة، كما أنَّها لم تكن تجريداً ذهنيَّاً فكريَّاً، أو تلفيقاً يلملم مكوِّناته من مظان متنوِّعة ومختلفة.

وليس بعيداً عن الصواب القول: إنَّ هذا الشِّعر الصادر عن الحياة ـ التجربة الشخصيَّة الفريدة، لغةً جميلة، فريدة، العائد إليها رؤية كاشفة واقعها، هو شعر مقاوم على مستويي الكشف: الرُّؤية والبنية الشعريتين. ويمكن أن نقدِّم أنموذجاً من هذا الشِّعر يتَّخذ فيه الفم.../الإنسان المحور الأساس.

«... وطني، أيُّها الجرس المعلَّق في فمي/أيُّها البدوي المشعَّث الشَّعر/ هذا الفم الذي يصنع الشِّعر واللذَّة/يجب أن يأكل، يا وطني...».

نلحظ الصُّورة الجديدة المركَّبة، المتمثِّلة في الوطن = الجرس، وهذا الجرس معلَّق بالفم، فهو، أي الوطن = الجرس هو الذي يُنطق الفم، ما يعني أنَّ الشِّعر هو صوت هذا الوطن المنبِّه، الدَّاعي إلى فعل، وهذا المعنى يتجسَّد في صورةٍ محسوسة مركَّبة كأنَّها مشهد، يتمثَّل فيه الوطن صوتاً منبِّهاً و...، يريد أن يأكل، وهنا تتمثَّل المفارقة، فالفم الصانع للشِّعر/الجمال واللَّذَّة يحتاج...،

ولا بدَّ من تلبية حاجته، وإلَّا فُقد ما يصنعه، وغدت الحياة قفراً خالياً من الشِّعر واللَّذَّة.

يقول الماغوط، في هذا الصَّدد، مميِّزاً شعره من نوع شعري آخر هو «الشِّعر المنبري»: «أنا شاعر مقاومة، ولكن ليس على طريقة الشُّعراء المنبريين الذين يصيحون ويصرخون: الشِّعر مقاومة، والمقاوم يدخل في أيِّ زاروب، أو أيِّ حارة، ويخاطب الناس، وما لا أحقِّقه من طريق الشِّعر أحقِّقه من خلال المسرح أو المقالة والسيناريو. إنَّني أحبُّ القارئ، ولا أتاجر به، أحبُّ دائماً أن أعطي لا أن آخذ».

❐❐❐